

قصة (في القطار) محمود تيمور صباح ناصع الجبين يجلي عن القلب الحزين ظلماته، وتنسم عليل ينعش الأفئدة ويسرى عن النفس همومها، وفي الحديقة تتمايل الأشجار يمنة ويسرة كأنها ترقص لقدوم الصباح، والناس تسير في الطريق وقد دبت في نفوسهم حرارة العمل، وأنا مكتئب النفس أنظر من النافذة لجمال الطبيعة، وأسائل نفسي عن سر اكتئابها فلا أهتدي لشيء. تناولت ديوان "موسييه" وحاولت القراءة، فلم أنجح فألقيت به على الخوان وجلست على مقعد واستسلمت للتفكير كأني فريسة بين مخالب الدهر. مكثت حيناً أفكراً ثم نهضت واقفاً، وتناولت عصاي وغادرت منزلي وسررت وأنا لا أعلم إلى أي مكان تقدوني قدماء، إلى أن وصلت إلى محطة باب الحديد وهناك وقفت مفكراً ثم اهتديت للسفر ترويحاً للنفس، وركبت القطار للضيعة لأقضى فيها نهاري بأكمله. وجلست في إحدى غرف القطار بجوار النافذة، ولم يكن بها أحد سواي وما لبنت في مكانى حتى سمعت صوت بائعي الجرائد يطن في أذني "وادي النيل، المقطم" فابتعدت إحداها وهمممت بالقراءة وإذا بباب الغرفة قد انفتح ودخلشيخ من المعممين، تحيف القوام كث اللحية، له عينان أقفل أحفانهما الكسل، فكانه لم يستيقظ من نومه بعد. وجلس الأستاذ غير بعيد عنى، وخلع مرకوبه الأحمر قبل أن يتربع على المق، ثم بصدق على الأرض ثلاثة ماسحا شفتيه بمنديل أحمر يصلح أن يكون غطاء طفل صغير، ثم أخرج من جيبه مسبحة ذات مائة حبة وحبة وجعل يردد اسم الله والنبي والصحابة والأولياء الصالحين. فحولت نظرى عنه فإذا بي أرى في الغرفة شاباً لا أدرى من أين دخل علينا. ولعل انشغالي برؤية الأستاذ منعني أن أرى الشاب ساعة دخوله. نظرت إلى الفتى وتبادر إلى ذهني أنه طالب ريفي انتهى من تأدية امتحانه، وهو يعود إلى ضياعه ليقضي إجازته بين أهله وقومه. نظرت إلى الشاب كما ينظر إلى ثم أخرج من حافظته رواية من روايات مسامرات الشعب whom بالقراءة بعد أن حول نظره عنى الأستان، ونظرت إلى الساعة راجياً أن يتحرك القطار قبل أن يواfine ما سافر رابع، فإذا بأفندي وضاح الطلعة، دخل غرفتنا وهو يت弟兄 في مشيته ويردد أنشودة طالما سمعتها من باعة الفجل والتربس. جلس الأفندي وهو يبتسم واضعاً رجلاً على رجل بعد أن قرأنا السلام، فردناه رد الغريب. وساد السكون في الغرفة والتلميذ يقرأ روايته، والأستاذ يسبح وهو غائب عن الوجود، والأفندي ينظر لملابسـه طوراً وللمـسافرين تارة أخرى، وأنا أقرأ وادي النيل منتظرـاً أن يتحرك القطار قبل أن يواfine ما سافر خامس. مكثـنا هـنـيـهـةـ لاـ نـتـكـلـ كـأـنـاـ نـتـنـظـرـ قـدـومـ أـحـدـ فـانـتـحـ بـاـبـ الـغـرـفـةـ وـدـخـلـ شـيـخـ يـبـلـغـ السـتـينـ، أحـمـرـ الـوـجـهـ بـرـاقـ العـيـنـينـ، يـدـلـ لـونـ بشـرـتهـ عـلـىـ أـنـهـ شـرـكـسـيـ الأـصـلـ، وـكـانـ مـاسـكـاـ مـظـلـةـ أـكـلـ عـلـيـهـ الـدـهـرـ وـشـرـبـ. أـمـاـ حـافـةـ طـرـبـوـشـهـ فـكـانـتـ تـصـلـ إـلـىـ أـطـرافـ أـذـنـيـهـ. وـجـلـسـ أـمـامـيـ وـهـوـ يـتـفـرـسـ فـيـ وـجـوهـ رـفـقـائـهـ الـمـسـافـرـيـنـ كـأـنـهـ يـسـأـلـهـمـ مـنـ أـيـنـ هـمـ قـادـمـونـ وـإـلـىـ أـيـنـ ذـاهـبـونـ ثـمـ سـمـعـنـاـ صـفـيرـ القـطـارـ يـنـبـئـ النـاسـ بـالـمـسـيرـ، وـتـحـرـكـ الـقـطـارـ بـعـدـ قـلـيلـ، يـقـلـ مـنـ فـيـهـ إـلـىـ حـيـثـ هـمـ قـاصـدـونـ. سـافـرـ الـقـطـارـ وـنـحنـ جـلوـسـ لـاـ نـبـسـ بـنـتـ شـفـةـ، فإذا بالـشـرـكـسـيـ يـحـمـلـقـ فـيـ ثـمـ قـالـ مـوجـهـاـ كـلـامـهـ إـلـىـ: هلـ مـنـ أـخـبـارـ جـدـيدـةـ يـاـ أـفـنـديـ؟ فـقـلـتـ وـأـنـاـ مـمـسـكـ الـجـرـيـدـةـ بـيـديـ -ـ لـيـسـ فـيـ أـخـبـارـ الـيـوـمـ مـاـ يـسـتـأـذـنـيـ وـابـتـدـأـ بـالـقـرـاءـةـ مـاـ يـقـعـ تـحـتـ عـيـنـيـ، وـلـمـ يـدـهـشـنـيـ مـاـ فـعـلـ لـأـنـيـ أـعـلـمـ النـاسـ بـحـدـةـ الشـرـاكـسـةـ. وـبـعـدـ قـلـيلـ وـصـلـ الـقـطـارـ مـحـطةـ شـبـراـ وـصـدـعـ مـنـهـ أـحـدـ عـدـمـ الـقـلـيـوـبـيـةـ وـهـوـ رـجـلـ ضـخـمـ الـجـثـةـ، كـبـيرـ الشـارـبـ أـفـطـسـ الـأـنـفـ، وـلـهـ وـجـهـ بـهـ آـثـارـ الـجـدـريـ، تـظـهـرـ عـلـيـهـ مـظـاـهـرـ الـقـوـةـ وـالـجـهـلـ. جـلـسـ الـعـمـدـةـ بـجـوارـيـ بـعـدـ أـنـ قـرـأـ سـوـرـةـ الـفـاتـحةـ وـصـلـىـ عـلـىـ النـبـيـ ثـمـ سـارـ الـقـطـارـ قـاصـدـاـ قـلـيـوـبـ. مـكـثـ الشـرـكـسـيـ قـلـيـاـ يـقـرـأـ الـجـرـيـدـةـ ثـمـ طـوـاـهـاـ وـأـلـقـىـ بـهـاـ عـلـىـ الـأـرـضـ وـهـوـ يـحـرـقـ مـنـ الـأـلـمـ وـقـالـ:ـ وـأـيـةـ جـنـيـةـ؟ـ إـنـكـ مـازـلـتـ شـابـاـ لـاـ تـعـرـفـ الـعـلـاجـ النـاجـعـ لـتـرـبـيـةـ الـفـلـاحـ..ـ وـأـيـ عـلـاجـ تـقـسـدـ؟ـ وـهـلـ مـنـ عـلـاجـ أـنـجـعـ مـنـ الـتـعـلـيمـ؟ـ فـقـطـ الشـرـكـسـيـ حاجـيـهـ وـقـالـ بـلـهـةـ الـغـاضـبـ:ـ هـنـاكـ عـلـاجـ آخرـ.ـ فـصـاحـ بـمـلـءـ فـيـهـ صـيـحةـ أـفـاقـ لـهـ الـأـسـتـاذـ مـنـ نـوـمـ وـقـالـ:ـ إـنـ السـوـطـ لـاـ يـكـلـفـ الـحـكـوـمـ شـيـئـاـ أـمـاـ الـتـعـلـيمـ فـيـتـطـلـبـ أـمـوـالـ طـائـلـةـ وـلـاـ تـنـسـ أـنـ الـفـلـاحـ لـاـ يـذـعـنـ إـلـاـ لـلـضـرـبـ لـأـنـهـ اـعـتـادـهـ مـنـ الـمـهـدـ إـلـىـ الـلـحـدـ.ـ وـأـرـدـتـ أـنـ أـجـبـ الشـرـكـسـيـ،ـ وـلـكـنـ الـعـمـدـةـ حـفـظـهـ اللـهـ كـفـانـيـ مـؤـنـةـ الرـدـ فـقـالـ لـلـشـرـكـسـيـ وـهـوـ يـبـتـسـمـ اـبـتسـامـةـ صـفـراءـ:ـ إـنـاـ نـعـانـيـ مـنـ الـفـلـاحـ مـاـ نـعـانـيـ لـنـكـبـ جـمـاـحـهـ.ـ أـنـاـ مـوـلـودـ بـهـ يـاـ بـيـهـ.ـ مـاـ شـاءـ اللـهـ.ـ جـرـىـ هـذـاـ الـحـدـيـثـ وـالـأـسـتـاذـ يـغـطـ فـيـ نـوـمـ وـالـأـفـنـديـ ذـوـ الـهـنـدـامـ الـحـسـنـ يـنـظـرـ لـمـلـابـسـهـ ثـمـ يـنـظـرـ لـنـاـ وـيـضـحـكـ،ـ أـمـاـ التـلـمـيـذـ فـكـانـتـ عـلـىـ وـجـهـ سـيـمـ الـأـشـمـئـزـاـزـ،ـ وـلـمـ يـطـقـ سـكـوتـاـ عـلـىـ مـاـ فـاهـ بـهـ الشـرـكـسـيـ،ـ فـقـلـتـ لـهـ فـالـلـفـتـ إـلـىـ الـعـمـدـةـ كـأـنـيـ وـجـهـتـ الـكـلـامـ إـلـيـهـ وـقـالـ:ـ أـنـاـ أـعـلـمـ النـاسـ بـالـفـلـاحـ،ـ وـلـمـ يـطـقـ السـكـوتـ،ـ الـفـلـاحـ يـاـ حـضـرـةـ الـعـمـدـةـ..ـ قـلـ يـاـ سـعـادـ الـبـكـ لـأـنـيـ حـزـتـ الرـتـبـ مـنـذـ عـشـرـيـنـ سـنـةـ.ـ قـالـ التـلـمـيـذـ:ـ الـفـلـاحـ يـاـ حـضـرـةـ الـعـمـدـةـ لـاـ يـذـعـنـ لـأـوـامـرـكـ إـلـاـ بـالـضـرـبـ لـأـنـكـ لـمـ تـعـودـهـ غـيـرـ ذـلـكـ،ـ فـلـوـ كـنـتـ أـحـسـنـتـ صـنـيـعـكـ مـعـهـ لـكـتـمـ وـجـدـتـ فـيـهـ أـخـاـ يـتـكـافـ معـكـ وـيـعـاـونـكـ،ـ وـلـكـنـكـ مـعـ الـأـسـفـ أـسـأـتـ إـلـيـهـ فـعـدـ إـلـىـ إـلـضـرـارـ بـكـمـ تـخـلـصـاـ مـنـ إـسـاءـتـكـ.ـ فـقـالـ الشـرـكـسـيـ:ـ يـرـافـقـ،ـ إـنـ الـحـظـ وـالـأـنـسـ يـاـ أـنـسـ..ـ أـدـبـ سـيـسـ فـلـاحـ.ـ ثـمـ سـكـتـ وـسـكـتـ الـحـاضـرـونـ،ـ وـأـوـشـكـتـ أـنـ تـهـأـ العـاصـفـةـ لـوـلـاـ أـنـ التـفـتـ الـعـمـدـةـ إـلـىـ الـأـسـتـاذـ وـقـالـ:ـ أـنـتـ خـيـرـ الـحـاـكـمـيـنـ يـاـ سـيـدـنـاـ فـاحـكـ لـنـاـ فـيـ هـذـهـ الـقـضـيـةـ.ـ فـهـزـ

الأستاذ رأسه وتنحنح وبصق على الأرض وقال: هل التعليم أفيد للفالح أم الضرب؟ فقال الأستاذ : بسم الله الرحمن الرحيم "إنا فتحنا لك فتحا مبينا. فضحك التلميذ وهو يقول: إن بين الغني والفقير من هو على خلق عظيم مما أن بينهم من هو في الدرك الأسفل. فأفاق الأستاذ من غفلته وقال: واليوم يشتمه ويهم بصفعه.